اجتهادات
حياة الطبيعة .. وحياتنا

هل ظهرت أوبئة وجوائح عندما كان الإنسان الأول يحيا حياة الطبيعة التى امتدت أزمانًا طويلة؟ وهل وجد البشر فى تلك الأزمان أنفسهم ذات يوم أو آخر تحت وطأة جائحة مثل التى نعانيها الآن؟ وكيف تعاملوا مع أوبئة ربما ظهرت فى مرحلة أو أخرى من مراحل حياة الطبيعة الأولى؟

هذه، وغيرها، أسئلة من وحى صعوبات تواجه البشر فى عالمنا منذ ظهور فيروس كورونا، وتدفع البعض إلى تحميل أنماط الحياة الحديثة المسئولية عن معاناتهم، فيما يبدو حنينًا إلى حياة الطبيعة سواء بوعى، أو على الأرجح بلا وعى.

ويُعيدنا التفكير فى شرور الحياة الحديثة، ومقارنتها بما نتصوره عن فضائل حياة الطبيعة، إلى سجالات فكرية متكررة منذ قرون أهمها السجال بين اثنين من أبرز مفكرى عصر التنوير، وهما جان جاك روسو ولورن دالمبير فى خمسينيات القرن الثامن عشر.

كان ذلك السجال حول فن المسرح، الذى رآه روسو خطرًا لأنه قد يُزَّيف وعى من يشاهدون الأعمال المسرحية، بسبب ضعف حالة الوعى العام فى ذلك الوقت. وكان دالمبير، على العكس، مؤيدًا للفن المسرحى، ومؤمنًا بأهميته.

لم يكن روسو رجعيًا بخلاف انطباع شائع عنه، بل كان قلقًا من أن يُحّول المسرح الكوميدى تحديدًا الجمهور إلى دُمى يتلاعب بهم صانعو الأعمال

المسرحية، عبر السيطرة على عقولهم. وعندما نتأمل ما يحدث الآن فى عصر الثورة الرقمية، وسهولة التلاعب بالعقول عبر وسائل التواصل الاجتماعى، وتنامى إمكانات مراقبة حركة الإنسان عن طريق هاتفه المحمول، نجد أن روسو كان مُحقًا ليس فى رفضه المسرح الكوميدى، ولكن فى قلقه من إخضاع الإنسان الذى سعى إلى تحريره وإطلاق عقله.

غير أنه كثيرًا ما يُساء فهم بعض أفكار روسو بسبب إشادته بحياة الطبيعة الأولى، التى تصور أنها كانت حياة هدوء وسلام, بخلاف من تخيلوها حياةً موحشة ووحشية. ومن يعرف، فربما يزداد حنين البشر إلى حياة الطبيعة الأولى فى العقود القادمة أكثر من أى وقت مضى، بمقدار ما يبدو لهم أن صراعات الحياة الحديثة وحروبها وأوبئتها تزداد على حساب محاسنها وفوائدها ومباهجها.